

الاقتباسات القرآنية في مقامات الحريري

د. مرتضى غازي سيد عمروف*

المعروف أن القرآن الكريم أثر تأثيراً بالغاً في الأدب العربي وآداب الشعوب الأخرى في من العالم الإسلامي في القرون الوسطى، وليست المؤلفات الدينية والرسائل في الفقه والشريعة هي التي تعكس روح الإسلام فقط، بل يلاحظ هذا التأثير في المؤلفات الكثيرة في علوم اللغة العربية، ومنها علم البلاغة، ونود أن ننظر في هذه المقالة هذا الجانب في مقامات الحريري.

ومن المعروف أيضاً أن المقامات احتلت مكانة مرموقة في الأدب العربي منذ ظهورها إلى يومنا هذا، وأول من أوجد هذا الفن هو بديع الزمان الهمذاني (المتوفى في 398هـ)، ثم جاء الحريري (أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري (446-526هـ)، وسارت وذاعت شهرة مقاماته بين الناس، وكان هناك حوالي ثمانين كاتباً حاولوا تقليد مقامات الهمذاني والحريري ولم يتمكنوا من بلوغ الغاية في ذلك.

تناولت مقامات الحريري مواضيع مختلفة من فقه ونحو ووصف الأشياء والبلدان... إلخ، وبطل مقامات الحريري هو واحد من المكدين أو المتسولين يطوف من مكان إلى مكان، يستجدي الناس بفصاحته وبيانه ويحتال عليهم، ويتقابل دائماً هذا الشخص البطل المسمى بأبي زيد السروجي مع راوٍ له يحكي أخباره، وهو الحارث بن همام، ومثلهما كان أبو الفتح الاسكندري وعيسى بن هشام في مقامات الهمذاني، كل ذلك بأسلوب فيه حرص على إظهار مقدرة المؤلف اللغوية والبيانية والبديعية، وفيه عرض لآراء الكاتب الأدبية والاجتماعية وغيرها في بعض الأحيان. وكما أكد الأستاذ عبد النافع طليمات، أن الحرص على إظهار المهارة اللغوية والبيانية والبديعية في مقامات الحريري أقوى منه في مقامات الهمذاني، وهذه تفيض بالحوادث وتنبض بالحياة أكثر من تلك.⁽¹⁾

بين البطل الرئيس و مغامراته (جولاته) لكسب لقمة العيش خصائص العهد الذي نشأ فيه فن

* كلية اللغات والترجمة - جامعة الملك سعود.

(1) أهل الكدبة أبطال المقامات في الأدب العربي. عبد النافع طليمات. دار ابن الوليد. 1957م، ص 8.

المقامة؛ فقد مضى عهد النهضة لخلافة العباسيين، وتولّى السلاطين الأجانب الحكم في بغداد، وكان نفوذ الخليفة في الأمور الدينية فقط؛ والحكم في أطراف الخلافة كان غير مستقر، وكانت الحالة الاقتصادية والاجتماعية صعبة ومعقدة جداً. يقول عبد الرحمن ياغي: "...والحالة هذه ... أن تنشأ جماعة ... تتخذ وسيلتها في كسب العيش، والتسول عن طريق الأدب الشعبي أحياناً ... والاحتيال أحياناً ... وكان بين هؤلاء طائفة الساسانيين ... أو بني ساسان ... نسبة إلى ساسان ... أو أهل الكدية ... الذي يمثل رجلاً فقيراً بصيراً في استعطاء الناس والاحتيال ... فتتجول هذه الطائفة في البلاد تستجدي وتحتال ..."⁽²⁾ وكان أبو زيد السروجي - بطل مقامات الحريري - يمثل شخصاً مثله، وهو في الوقت نفسه ليس شخصاً عادياً من أهل الكدية، بل إنسان متعلم ومتقف، وعالم في الفقه والنحو والبلاغة والنثر، وهو شاعر، والأهم من هذا كله أنه خطيب ماهر يجلب بخطبته ووعظه الناس، وكلام أبي زيد الذي يليقه، نثراً كان أو نظماً - بغض النظر عن مضمونه - يعتبر نقطة الذروة في كل مقامة، وفي بعض المقامات لا يقوم بطلها بكدية، بل يظهر مهارته اللغوية والبيانية مستخدماً فيها المحسنات اللغوية، والألغاز اللفظية، والعبارات المجازية، والأمثال الشعبية، ومقتبساً الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة والآيات الشعرية... إلخ.

ونلاحظ الاقتباسات القرآنية في كثير من المقامات، سواء أكانت اقتباسات مباشرة للآيات الكريمة أم استخدام تعابير قرآنية، أم إشارة إلى شخصيات وأحداث مذكورة في القرآن الكريم، ففي المقامات الرازية، والفقهية، والفرائدية، والصورية، والمروية، والعمانية، والرحبية، والساسانية، من مقامات الحريري، نقرأ اقتباسات كاملة لبعض الآيات الكريمة كما نقرأ جزءاً من الآية، وكل هذه الاقتباسات تأتي في كلام أبي زيد السروجي، بطل المقامات.

يجمّل أبو زيد كلامه بآيات كريمة سواء أكان كلامه خطبة أم موعظة أمام جماعة من الناس، ويستخدمها لإثبات "صحة" أو "حقيقة" كلامه، أو خلاصة لمنطقه الذي لا يمكن الرد عليه، وهذه الآيات الكريمة تستخدم لإكمال ما قاله جزئياً أو كاملاً، وتتوافق هذه الاقتباسات مع النص في السجع والمعنى، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من النص، ونرى بعض الأمثلة من ذلك عندما نقرأ: وَلَا تَيْأَسْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾⁽³⁾، ويأتي هذا الاقتباس في المقامة الساسانية، حيث يحكى أن أبا زيد لما شاخ أوصى ابنه بأن لا صناعة أنفع من الكدية.⁽⁴⁾

وفي المقامة الساوية⁽⁵⁾ يقف أبو زيد بالمقابر واعظاً، ويتحدث عن القدر وأن على كل إنسان ألا ينسى قدره وجزاءه عند ربه، وينهي كلامه بآية كريمة: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾⁽⁶⁾، وقد جاءت متناسقة مع كلامه قبلها حيث نقرأ:

(2) رأي في المقامات، د. عبد الرحمن ياغي، بيروت، 1969م، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع. ص 39.

(3) سورة يوسف، الآية 87.

(4) مقامات الحريري، القاهرة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، د.ت.، ص 578.

(5) المقامات، المقامة الحادية عشرة، ص 97.

(6) سورة التكاثر، الآية 4.

...ولا تُخْطِرُونَ ذِكْرَ الْمَوْتِ بِإِيَالِ * حَتَّىٰ كَأَنَّكُمْ قَدْ عُلِقْتُمْ مِنَ الْحِمَامِ * بِذِمَامِ * أَوْ حَصَلْتُمْ مِنَ الزَّمَانِ * عَلَىٰ أَمَانِ * أَوْ وَبَقِيتُمْ بِسَلَامَةِ الذَّاتِ * أَوْ تَحَقَّقْتُمْ مُسَالِمَةَ هَاجِمِ اللَّذَاتِ * كَلَّا سَاءَ مَا يَنْتَوِيهُمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ أَنْشُدْ...."

وتليها أبيات شعرية. (7)

وتتضمن المقامة الرأزية⁽⁸⁾ كون أبي زيد واعظاً، يعرض بالأمير وينهاه عن الظلم، وهذه المقامة تعتبر من المقامات الزهدية وهي تبدأ كالمقامات الأخرى بحديث الحارث بن همام من أنه بدأ يهتم بالنظر في العواقب، ويفرق بين ما يضر وما ينفع، ويترنن بمحاسن الأخلاق، ويترك أو يتجنب ما يزرى بالأخلاق، وأنه ما يزال يأخذ نفسه بالآداب، ثم يقول إنه سافر إلى مدينة الري، وذات يوم يرى جماعة تسرع إلى موعظة، والواعظ بلا شك هو أبو زيد، يدعو إلى الخير وصنع المعروف، ويذكر في كلامه:

... "وَلَا تُبَالِي أَلَيْكَ أَمْ عَلَيْكَ * أَتُظَنُّ أَنْ سَتُنْزَلَ سُدَى * وَأَنْ لَا تُحَاسِبَ غَدًا * أَمْ تَحْسِبُ أَنْ الْمَوْتَ يَقْبَلُ الرُّشَا * أَوْ يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَسَدِ وَالرُّشَا * كَلَّا وَاللَّهِ لَنْ يَدْفَعَ الْمُنُونُ * مَالًا وَلَا بَنُونَ * وَلَا يَنْفَعُ أَهْلَ الْقُبُورِ * سِوَى الْعَمَلِ الْمَبْرُورِ * فَطُوبَى لِمَنْ سَمِعَ وَوَعَى * وَحَقَّقَ مَا ادَّعَى * وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * وَعَلِمَ أَنَّ الْفَائِزَ مَنْ ارْعَوَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ أَنْشُدَ إِنْشَادَ وَجَلٍ * بِصَوْتٍ زَجَلٍ... " (9)

وهنا نجد الحريري يقتبس من كلام الله تعالى ما يوضح المعنى ويضيف نوعاً من الموسيقى إلى كلامه في المقامة، فقد أفاد من الآية ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾⁽¹⁰⁾، ثم اقتبس الآية ﴿وَتَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾⁽¹¹⁾، وكذلك اقتبس قول الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعْيُهُ سَوَاقٍ يُرَى﴾⁽¹²⁾، واضعاً الآيات في أثناء كلامه، مما منح الكلام نغمة السجع المحببة، وكذلك تأكيد المعنى المراد من الموعظة.

ويستمر أبو زيد في كلامه قائلا:

(7) المقامات، ص 99-100؛ تخطرون: توردون، علقتم: تمسكتكم، الحمام: الموت، والذمام: العهد، والذات: النفس، والمسألة: المصلحة، وهادم الذات: الموت.

(8) مقامات الحريري، المقامة الحادية والعشرون، ص 198.

(9) المقامات، ص ص 201-202، الرشا بالضم: جمع رشوة، وبالفتح: ولد الظبي، والمنون: الموت، والمبرور: المقبول، وارعوى:

(10) سورة القيامة، الآية 36.

(11) سورة النازعات، الآية 40.

(12) سورة النجم ، الآية 38-39.

"فَوَالله ما يَغْفُلُ الدَّيَّانُ * ولا تُهْمَلُ يا إنسان * ولا تُلْغَى الإِسْاءَةُ ولا الإِحْسانُ * بلْ سَيُوضَعُ لَكَ الْمِيزانُ * وكما تَدِينُ تَدانُ..." (13)

وهنا إشارة إلى الآيات 7-9 من سورة الرحمن.

وكذلك ينهي أبو زيد كلامه بشيء من القرآن الكريم في المقامة الفرائية⁽¹⁴⁾ التي تتضمن تفضيل أبي زيد للكتابتين: الإنشاء والحساب، حيث يقول :

"... إِلَّا أَنْ صِناعَةَ الْحِسابِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ * وصِناعَةَ الْإِنشاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّنْفِيقِ * وَقَلَمُ الْحَاسِبِ ضابطٌ * وَقَلَمُ الْمُنْشِئِ خابطٌ * وَبَيِّنْ إِتاوَةَ تَوْطِيفِ الْمُعامَلاتِ * وَتِلَاوَةَ طوامِيرِ السَّجَلاتِ * بَوْنٌ لا يَذْرُكُهُ قِياسُ * ولا يَغْتَوِرُهُ التَّباسُ * ... " ، إلى أَنْ قال: "...عَلَى أَنْ يَرِاعَ الْإِنشاءُ مُنْقَوِلٌ * وَيَرِاعَ الْحِسابُ مُتَأَوِّلٌ * وَالْمَحاسِبُ مُناقِشُ * وَالْمُنْشِئُ أَبُو بَراقِشُ * وَلَكِنَّهُما حُمَةٌ حِينَ يَرْقَى * إِلَى أَنْ يُلْقَى وَيُرْقَى * وإِغْناةٌ فِيمَا يُنْشا * حَتَّى يُغْنَى وَ يُرْشَى * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ" (15).

فقد أنهى خطبته بقول الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾ (16)، فهي تجمل المعاني التي وردت في كلامه.

وفي المقامة العمانية⁽¹⁷⁾ نقرأ في كلام أبي زيد:

"... فَلَمَّا شَرَعْنَا فِي الْقَلْعَةِ * وَرَفَعْنَا الشُّرْعَ لِلسُّرْعَةِ * سَمِعْنَا مِنْ شاطِئِ الْمَرْسَى * حِينَ دَجَا اللَّيْلُ وَأَغْسى * هاتِفًا يَقُولُ: يا أَهْلَ ذَا الْفَلَكِ الْقَوِيمِ * الْمَرْجَى فِي الْبَحْرِ الْعَظِيمِ * بِتَقْدِيرِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * هَلْ أَذْلَكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابِ أَلِيمِ * ... " (18)

فهنا الآية: ﴿هَلْ أَذْلَكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابِ أَلِيمٍ﴾ (19) جاءت في موضعها من السجع، تزين كلام أبي زيد، وتجعل السامع يتلهف على سماع الباقي، فيكون السؤال منهم لمتابعة القصة! كما نقرأ أيضاً:

(13) المقامات، ص ص 206-207.

(14) المقامات، المقامة الثانية والعشرون، ص 209.

(15) المقامات، ص ص 214-217، [الإتاوة: الخراج والجباية إلى بيت المال. التوظيف: التقسيط. والطوامير: الكتب، أبو براقش: طائر ذو ألوان شتى. والحمة: السم، ويرقى: إشارة إلى الرشوة، وينشا، بتخفيف الميم: يكتب. الإغناة: المشقة] - هيئة التحرير.

(16) سورة ص، الآية 24.

(17) المقامات، المقامة التاسعة والثلاثون، ص 425.

(18) المقامات، ص ص 426-427. القلعة: النهوض والرحلة، الشرع: جمع الشراع وهو قلع السفينة، دجا: أظلم، أغسى: اشتدت ظلمته، هاتفاً: صائحاً، القويم: المستقيم، المزجي: المسوق.

(19) سورة الصف، آية 10.

"... وَقَالَ أَتَدْرُونَ مَا هِيَ * هِيَ وَاللَّهِ حِرْزُ السَّفَرِ * عِنْدَ مَسِيرِهِمْ فِي الْبَحْرِ *
 وَالْجُنَّةُ مِنَ الْعَمِّ * إِذْ جَاشَ مَوْجُ الْيَمِّ * وَبِهَا اسْتَعَصِمَ نُوحٌ مِنَ الطُّوفَانِ * وَنَجَا مِنْ مَعَهُ
 مِنَ الْحَيَّوَانِ * عَلَى مَا صَدَّعَتْ بِهِ آيَةُ الْقُرْآنِ * ثُمَّ قَرَأَ بَعْدَ أُسَاطِيرِ تِلَاوَتِهَا * وَزَخَارِفِ
 جَلَالِهَا ... * وَقَالَ: ﴿ اِرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ (20).

فجاءت الآية كسابقتهما من حيث إفادة الموسيقى والتزيين اللفظي.

والاقتباسات القرآنية المذكورة أعلاه استخدمت في كلام أبي زيد، وهو يكمل خطبته أو وعظه
 أو كلامه، كقمة منطق، ولكن مقدرة الحريري تبرز في تضمين كلام الله تعالى في خطب أبي زيد
 (كلامه هو) فلا تكاد تجد تنافراً بين هذا التضمين - الاقتباس وكلام أبي زيد كما رأيت.

ونلاحظ الاقتباسات القرآنية في كلام الراوي الحارث بن همام أيضاً، ونضرب مثالا من
 المقامة السمرقندية⁽²¹⁾، (وهذه المقامة تتضمن وقوف أبي زيد بربوة يخطب خطبة عريّة من
 الإعجاب): "تَخَيَّرْتُ الْمَرْكَزَ لاسْتِمَاعِ الْخُطْبَةِ * وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا *
 وَيَرُدُّونَ فِرَادَى وَأَزْوَاجًا..."⁽²²⁾، كما نلاحظ هنا أن الراوي ذكر بعض الآية الكريمة ﴿وَرَأَيْتَ
 النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾⁽²³⁾، ثم أتبعها بكلامه في سجع لطيف.

وفي المقامة الواسطية⁽²⁴⁾ التي تتضمن اجتماع الحارث مع أبي زيد بالخان، وكيف صرع أبو
 زيد أهل الخان بإطعامهم الحلواء وأخذهم مالهم، نقرأ قول الراوي: "أَقْسَمَ بِالطُّورِ * وَالْكِتَابِ
 الْمَسْطُورِ.." وهنا توجد الإشارة إلى الآيتين الكريمتين: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابِ مَسْطُورٍ﴾⁽²⁵⁾، ويأتي
 بعدها بقوله: "لَيَنْكَشِفَنَّ سِرُّ هَذَا الْأَمْرِ الْمَسْتُورِ * وَلَيَنْتَشِرَنَّ ذِكْرُهُ إِلَى يَوْمِ النَّشُورِ..."⁽²⁶⁾ فالسجع
 هنا أخذ وقعا موسيقيا متناسقا مع الفاصلة في الآيتين.

في المقامة الصورية⁽²⁷⁾ نجد وصف حفل زواج لأسرة من "بني ساسان"، وهي طائفة من
 السائلين والشطار والفقراء، وهناك شيخ يخطب أمام الجمهور، إنه بلا شك أبو زيد، وهو يحمد الله
 تعالى لأنه حدّد زكاة المال، ومنع طرد السائل والفقير، يقول أبو زيد:

"...وَنَذَبَ إِلَى مَوَاسَاةِ الْمَضْطَرِ * وَأَمَرَ بِإِطْعَامِ الْقَانِعِ وَالْمُعْتَرِّ * وَوَصَفَ عِبَادَةَ
 الْمُقْرِبِينَ * فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ * فَقَالَ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ *

(20) سورة هود، الآية 41.

(21) المقامات، المقامة الثامنة والعشرون، ص 286.

(22) المقامات، المقامة الثامنة والعشرون، ص 287.

(23) سورة النصر، الآية 2.

(24) المقامات، المقامة التاسعة والعشرون، ص 290.

(25) سورة الطور، الآية 1-2.

(26) المقامات، ص 302.

(27) المقامات، المقامة الثلاثون، ص 312.

للسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ * أَحْمَدُهُ عَلَى مَا رَزَقَ مِنْ طَعْمَةٍ هَنِيئَةٍ * ... يجزي المتصدقين
وَالْمَتَصَدِّقَاتِ * ويمحق الربا ويربِّي الصدقات . . . فقال سبحانه لتعرفوا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا
خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا * . . . فَأَنكحوه إنكاح مثله *
وَصِلُوا حَبْلَكُمْ بِحَبْلِهِ * وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... (28)

ففي المرة الأولى يضمن معنى الآية بألفاظ من الآية نفسها، وهي: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا
الْقَانَعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ (29)، وفي الثانية يستشهد بقول الله بصراحة، والآيتان من سورة المعارج. ثم يفيد
من آية الربا (30)، وكذلك آية الحجرات، ثم التوبة، وهو في كل هذا يأتي بالآية كاملة أو ببعضها
ليتم عملية السجع في كلامه، مع الإشارة إلى فائدة تزويج الشاب المعني في الخطبة، وقد أضفى
كلام الله تعالى كثيراً من الحسن على كلام الحريري وزانه وجعله سهل الحفظ بتوافق الفاصلة مع
السجع.

إن ما مر بنا يوضح أن كلام أبي زيد هو كلام رفيع المستوى، ويتم تقويمه باقتباسات قرآنية
أسلوبياً وبلاغياً، وأن أبا زيد السروجي - بطل المقامات - لا يكذب ويخدع لأجل الحصول على
لقمة العيش وتوفير المعيشة الجيدة أو كسب المال فقط، بل إنه يريد من كل هذا أن يبين أن لديه
معلومات عالية في الفقه والنحو والصرف والبلاغة والنظم ومجالات أخرى.

وإلى جانب اقتباس آيات كريمة أو أجزاء منها نجد إشارات إلى أحداث أو شخصيات مذكورة
في القرآن الكريم:

وينقد الراوي أبا زيد - بطل المقامات - لكذبه وخداعه، وأما أبو زيد فيجيب إجابة أصدق من
النقد، ويستخدم مثالا من كتاب الله، أو من الحديث الشريف، ففي المقامة الدينارية (31) - على سبيل
المثال - يتبين بطل المقامة في صفة شيخ أعرج في لباس قديم وهو يشكو من تغير في حياته: كان
رجلا غنياً وسخياً فأصبح عجوزاً فقيراً. وفي هذه المقامة أيضاً يبين مهارته في الفصاحة والبلاغة،
ويمدح ديناراً لكي يكسبه، وفي نفس الوقت يذمه للعرض نفسه، وفي خاتمة المقامة يعرف الحارث
ابن همام أبا زيد بالشيخ فيسأله: "لماذا تعارجت؟" فيجيب أبو زيد:

تَعَارَجْتُ لَا رَغْبَةَ فِي الْعَرَجِ وَلَكِنْ لِأَقْرَعَ بَابَ الْفَرَجِ
وَأَلْقِي حَبْلِي عَلَى غَارِي وَاسْنُوكَ مَسْنُوكَ مَنْ قَدْ مَرَجَ
فَإِنْ لَأَمَتِي الْقَوْمُ قُلْتُ اغْزِرُوا فَلَيْسَ عَلَى أَغْرَجٍ مِنْ حَرَجٍ. (32)

(28) المقامات، ص 316-319.

(29) سورة الحج، الآية 36.

(30) سورة البقرة، الآية 276.

(31) المقامات، المقامة الثالثة، ص 29.

(32) المقامات، ص 31.

ونقارن مع قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾ (33).

ومثال آخر من المقامة الدمياطية (34)، حيث يحصل أبو زيد على المكافأة لحسن فصاحته ويترك الجماعة وهو يعد أنه سيعود سريعاً، أما الراوي فيجد رسالة كتبها أبو زيد مسوِّغاً مغادرته قال فيها:

يَا مَنْ غَدَا لِي سَاعِدًا	وَمُسَاعِدًا نُونُ الْبَشْرِ
لَا تَحْسِبُنِي أَنِّي نَائِيُكَ	عَنْ مَلَالٍ أَوْ أَشْرِ
لَكِنِّي مُذْ لَمْ أَزَلْ	مِنْ إِذَا طَعِمَ انْتَشَرُ: (35)

والكلمات الأخيرة " إِذَا طَعِمَ انْتَشَرُ " في هذه الأبيات مأخوذة من قوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ (36).

وفي المقامة الكوفية (37) يصف أبو زيد حالته ويقول:

" إِنَّ مَرَامِي الْغُرْبَةَ * لَفَظْتَنِي إِلَى هَذِهِ التَّرْبَةِ * وَأَنَا ذُو مَجَاعَةٍ وَبُوسَى * وَجِرَابِ كَفُودٍ أَمْ مُوسَى * " (38).

وهنا إشارة إلى ما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَأَصْنَحْ فُودًا أَمْ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (39).

ونقرأ في المقامة الرحبية (40): "... وَبَرِيءٌ بَرَاءَةُ الذَّنْبِ مِنْ دَمِ ابْنِ يَعْقُوبَ "، (41) (ابن يعقوب هو يوسف الصديق عليه السلام)، وهنا إشارة إلى أحداث وردت في سورة يوسف، حيث كذب إخوته على أبيهم عندما قالوا إن الذنب أكل أخاهم يوسف. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذُهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ (42).

ومثال آخر في المقامة القهقرية (43)، وسميت هذه المقامة بذلك لأنها تتضمن الرسالة التي تُقرأ

(33) سورة الفتح، الآية 17.

(34) المقامات، المقامة الرابعة، ص 31.

(35) المقامات، ص 39.

(36) سورة الأحزاب، الآية 53.

(37) المقامات، المقامة الخامسة، ص 40.

(38) المقامات، ص 44.

(39) سورة القصص، الآية 10.

(40) المقامات، المقامة العاشرة، ص 89.

(41) المقامات، ص 94.

(42) سورة يوسف، الآية 17.

(43) المقامات، المقامة السابعة عشرة، ص 160.

من آخرها إلى أولها كما تُقرأ من أولها إلى آخرها، يقول في هذه المقامة:

"...ثم اعتلق كل منا بذيله * ولذ له فلذة من نيله * فأبى قبول فلذتى * وقال: لست
أرزا تلامذتي * فقلت له: كن أبا زيد على شحوب سحنك * ونضوب ماء وجنتك * فقال
أنا هو على نحولي وقحولي * وقشف محولي * فأخذت في تثريه * على تشريقه وتغريبه
* فحولق واسترجع * ثم أنشد من قلب موجع:

سَلَّ الزَّمانُ عَلَيَّ غَضَبَهُ لَبِروغُنِي وَأَخَذَ غَرَبَهُ
وَأَسْتَلَّ مِنْ جَفْنِي كَرًّا هُمُ رَاغِمًا وَأَسْأَلَ غَرَبَهُ
وَأَجَانَنِي فِي الْأَفْقِ أَطْوَى شَرْقَهُ وَأَجُوبُ غَرَبَهُ
فَبِكُلِّ جَوْ طَلَعَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ لِي وَغَرَبَهُ
وَكَذَا الْمُغْرَبُ شَخْصُهُ مُتَغَرَّبٌ وَأَوَاهُ غَرَبَهُ

ثُمَّ وَلَّى بِجَرِّ عَطْفِيهِ * وَيَخْطُرُ بِيَدِيهِ * وَنَحْنُ بَيْنَ مُتَلَقِّ إِلَيْهِ * وَمُتَهَافٍ عَلَيْهِ * لم
نَلْبَثْ أَنْ حَلَلْنَا الْحَبَا * وَتَفَرَّقْنَا أَيَادِي سَبَا (44).

وقبيلة سبأ ذكرت في القرآن الكريم، ونقرأ في شرح المقامات: "هذا مثل يضرب لكل قوم تفرقوا
في كل ناحية، وسبأ هم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقٍ﴾" (45) وهي قبيلة تفرقت
عشر قبائل سبأ باليمن وأربعاً بالشام، وسبب ذلك أن ملكهم أذنته كاهنته بالهلاك بسيل العرم
فصدقها، وجمع أهلها ورعيته وعرفهم بذلك، وعزم على الانتقال فوافقوه، وذهب كل منهم إلى
موضع" (46).

وفي المقامة المكية (47) نقرأ: "قُلْتُ لِلشَّيْخِ هَلْ ضَاهَتْ عَدَّتَا عَرْقُوب * أَوْ هَلْ بَقِيَتْ حَاجَةٌ
فِي نَفْسِ يَعْقُوب" (48). هنا يشير الراوي باستخدام تعبير "حاجة في نفس يعقوب" إلى ما جاء في
سورة يوسف ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ (49). ومعروف أن هذا التعبير "حاجة في نفس

(44) المقامات، 167-169، اعتلق: تعلق؛ فلذ: قطع؛ فلذة: قطعة؛ أرزا: أنقص؛ تثريه: لومه؛ حولق: قال لا حول ولا قوة إلا
بالله؛ استرجع: قال إنا لله وإنا إليه راجعون؛ سل: جرد؛ غضبه: سيفه الماضي القاطع؛ يروعني: غرب السيف؛ حله؛
استل: انتزع؛ كراه: نومه؛ مراغما: مغاضبا؛ الغرب: مجرى الدمع؛ نواه: جهته المطلوبة؛ والمطفان: جانب الثوب؛ الحبا: جمع
حبوة؛ احتنى الرجل إذا جمع ظهره وساقه يديه.

(45) سورة سبأ، الآية 19.

(46) المقامات، ص 169.

(47) المقامات، المقامة الرابعة عشرة، ص 128.

(48) المقامات، ص 135.

(49) سورة يوسف، الآية 67.

يعقوب" أصبح مثلاً مشهوراً بين الناس، وكذلك يستفيد المؤلف من الأمثال عند ذكره عطية عرقوب، وقد جاء في الأمثال: مواعيد عرقوب؛ وهو رجل يضرب به المثل في إخلاف الموعد في قصة معروفة في كتب الأمثال⁽⁵⁰⁾.

ويذكر الراوي أحداث سورة الشمس في كلماته التالية في المقامة السنجارية⁽⁵¹⁾:
"نَشَرَ أَبُو زَيْدٍ كَالْمَجْنُونِ * وَتَبَاعَدَ عَنْهُ تَبَاعُدَ الضَّبِّ مِنَ النَّوْنِ * فَرَاوَدْنَاهُ عَلَى أَنْ يَعُودَ وَأَنْ لَا يَكُونَ كَقَدَارٍ فِي تَمُودٍ"⁽⁵²⁾.

ققدار هذا هو عاقر ناقة صالح عليه السلام، وكان شوماً على قبيلته، حيث أنزل الله بهم العذاب بعد فعلته السيئة، وقيل في المثل "أشأم من قدار"⁽⁵³⁾.

وفي المقامة نفسها يشير بتعبير "وحققت سحر بابل"⁽⁵⁴⁾ إلى الآية 102 في سورة البقرة: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ...﴾⁽⁵⁵⁾.
وفي المقامة الزبيدية⁽⁵⁶⁾:

وَيَقُولُ هَلْ خُرُّ يَبَا عُمَا يُبَاغِ الْأَذَهْمُ
أَقْصِرْ فَمَا أَنَا فِيهِ بِذ عَا مِثْلَ مَا تَتَوَهَّمُ
قَدْ بَاعَتِ الْأَسْبَابُ قَبْلِي * يُوسُفَا وَهُمْ هُمُ⁽⁵⁷⁾

الأسباط كالقبائل، وهم أولاد يعقوب عليه السلام يوسف وإخوته، وهنا أيضاً إشارة إلى القصة المذكورة في سورة يوسف، من أن إخوة يوسف عليه السلام ألقوه في الجب، ولما جاءت سيارة أخرجوه وجعلوه في بضاعتهم وشرروه بثمن بخس.

وفي المقامة الصعديّة⁽⁵⁸⁾ نقرأ أن الحارث بن همام يحكى قصة "شيخ بالي الرياش، بادي

(50) مجمع الأمثال، الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد. دار الجيل، بيروت، 1978م. ج1، ص447؛ وجمهرة الأمثال، العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. دار الجيل، بيروت، 1988م. ط2، ج1، ص433؛ والمستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، جاز الله أبو القاسم محمود. دار الكتب العلمية، 1978م. ط2، ج1، ص176.

(51) المقامات، المقامة الثامنة عشرة، ص169.

(52) المقامات، ص171، نشر: ارتفع من مكانه أو تباعد؛ الضب: حيوان بري معروف؛ النون: الحوت؛ راودناه: سألناه أو طالبناه.

(53) مجمع الأمثال، الميداني، ج2، ص187؛ وجمهرة الأمثال، العسكري، ط2، ج1، ص156؛ والمستقصى في أمثال العرب، ج1، ص107.

(54) المقامات، ص173.

(55) سورة البقرة، الآية 102.

(56) المقامات، المقامة الرابعة والثلاثون، ص370.

(57) المقامات، ص382.

(58) المقامات، المقامة السابعة والثلاثون، ص405.

الارتعاش" حضر عند القاضي مع غلام، ويشكو إلى القاضي أن ابنه لا يسمع كلامه ولا يطيعه ولا ينفذ أمره، فيقول القاضي: إذا خالف الولد أمر والده فقد الوالد ولده، فقال الغلام غاضباً: إنه أطاع والده ونفذ كل أوامره، وأنه علمه أدب النفس، وأن الطمع معيبة وشدة الحرص وغلبته مفسدة، وعندما افتقر كلفه الاحتيال والتسول. أما الشيخ فغضب على ابنه وطلب منه السكوت، ثم ندم على أنه كان قاسياً معه، وتحدث في فضل القناعة وزين كلامه بالأبيات الشعرية التالية:

وَاسْتَنْزِلِ الرَّيَّ مِنْ دَرِّ السَّحَابِ فَإِنْ
بَلَّتَ يَدَاكَ بِهِ فَلَيْسَ بِكَ الظَّفَرُ
وَإِنْ رُدِدْتَ فَمَا فِي الرَّدِّ مَنَقَصَةٌ عَلَيْكَ قَدْ رَدَّ مُوسَى قَبْلُ وَالْخَضِرُ (59)

وهنا تلميح إلى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَبِأَوَّلِهَا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ (60). فقد رد أهل القرية موسى والخضر عليهما السلام ولم يطعموهما، فاتخذ ردهما مثلاً يتأسى به.

وفي المقامة الحلبية (61): "قال له بُورِكَ فَيْكَ مِنْ طَلَا * كما بُورِكَ فِي لَوَا" (62)، يعني شجرة الزيتون يشير إلى قوله تعالى: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ (63).

وهذا في غاية الإغراب، فكيف بورك في لا؟ هنا لابد أن يكون القارئ ذا حس لغوي وأدبي وحفظ ومعرفة ليتمكن من تفسير هذا الكلام وربطه بما جاء في القرآن من وصف الزيتون وأنها لا شرقية ولا غربية!

وفي المقامة البصرية (64):

"...قال الحارث بن همام فَلَمْ يَزَلْ يَرْدُّهَا بِصَوْتِ رَفِيقٍ * وَيَصْلُهَا بِزَفِيرٍ وَشَهيقٍ *
حَتَّىٰ بَكَيْتُ لِبُكَاءٍ عَيْنِيهِ * كَمَا كُنْتُ مِنْ قَبْلِ أَبْكِي عَلَيْهِ * ثُمَّ بَرَزَ إِلَىٰ مَسْجِدِهِ بِوُضُوءٍ تَهَجُّدِهِ
* فَأَنْطَلَقْتُ رَدْفَهُ * وَصَلَّيْتُ مَعَ مَنْ صَلَّى خَلْفَهُ * وَلَمَّا انْفَضَّ مِنْ حَضَرٍ * وَتَفَرَّقُوا شَغَرَ
بَغْرٍ * أَخَذَ يَهَيِّئُنِي بِدَرْسِهِ * وَيَسْبِكُ يَوْمَهُ فِي قَالِبِ أَمْسِهِ * وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ يُرْنُ إِرْنَانَ
الرَّقُوبِ * وَيَبْكِي وَلَا يَبْكِي يَعْقُوبُ * حَتَّىٰ اسْتَبْنَتْ أَنَّهُ التَّحَقَّقَ بِالْأَفْرَادِ * وَأَشْرَبَ قَلْبُهُ هَوَى
الْأَفْرَادِ * فَأَخْطَرْتُ بِقَلْبِي عَزْمَةَ الْإِرْتِحَالِ * وَتَخَلَّيْتُ وَالتَّخَلَّى بِتِلْكَ الْحَالِ * فَكَأَنَّهُ تَفَرَّسَ
مَانُوبَتِ * أَوْ كُوشَفَ بِمَا أَخْفَيْتُ * فَزَفَرَ زَفِيرَ الْأَوَاهِ * ثُمَّ قَرَأَ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
* فَأَسْجَلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ بِصِدْقِ الْمُحَدِّثِينَ * وَأَيَّقَنْتُ أَنَّ فِي الْأُمَّةِ مُحَدِّثِينَ * ثُمَّ دَنَوْتُ إِلَيْهِ كَمَا

(59) المقامات، ص 406-411.

(60) سورة الكهف، الآية 77.

(61) المقامة السادسة والأربعون، ص 522.

(62) المقامات، ص 527. الطلا: ولد الظبية.

(63) سورة النور، الآية 35.

(64) المقامة الخمسون، ص 583.

يَذْنُو الْمُصَافِحُ * وَقُلْتُ: أَوْصِنِي أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّاصِحُ * فَقَالَ أَجْعَلِ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنِكَ *
وَهَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْنِكَ * فَوَدَّعْتُهُ وَعَبَّرَاتِي يَتَحَذَّرْنَ مِنَ الْمَاقِي * وَزَفَرَاتِي يَتَصَعَّدْنَ مِنَ
التَّرَاقِي * وَكَانَتْ هَذِهِ خَاتِمَةَ التَّلَاقِي. (65)

وكما نقرأ هنا (يكاء يعقوب) إشارة إلى ما جاء في قصة يوسف عن أبيه يعقوب عليهما السلام،
وأخر اقتباس قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (66)، والثالث جزء من آية من سورة
الكهف: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (67).
وفي المقامة البصرية، (68) نرى أبا زيد وقد تاب إلى الله من صناعته، ونراه يندم على ذنوبه،
وينشد:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ ذُنُوبٍ أَفْرَطْتُ فِيهِنَّ وَاعْتَدَيْتُ
كَمْ خُضْتُ بِخَرِّ الضَّلَالِ جَهْلًا وَرُخْتُ فِي الْغَيِّ وَاعْتَدَيْتُ
وَكَمْ تَنَاهَيْتُ فِي التَّخْطِئِ إِلَى الْخَطَايَا وَمَا انْتَهَيْتُ
فَلَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ هَذَا نَسِيًّا وَلَمْ أَجْنِ مَا جَنَيْتُ
. يَا رَبِّ عَفَوًا فَأَنْتَ أَهْلٌ لِلْعَفْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ (69)

فقد ضمن الشعر جزءا من الآية: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ (70).

ويغيب بطلنا عن المسرح، ولكن الحارث بن همام يعلم أنه رجع إلى بلده "سروج" بعد أن خرج
منها الروم، "ولبس الصوف وأمّ الصفوف، وصار بها الزاهد الموصوف. وبذلك لم يعد ذا المقامات،
فقد أصبح ذا الكرامات. ويرحل إليه، ... فيعرف الحارث أنه أصبح من المتصوفة الذين أخلصوا
وجوههم ونفوسهم إلى ربهم. فيرحل عنه، وهو يقول له: وَهَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْنِكَ. وكانت هذه خاتمة

(65) المقامات، 601-602. بوضوء تمجده: أي بوضوئه الذي صلى به نافلة الليل؛ ردفه: في أثره؛ تفرقوا شغرا بغر: بتحريكهما،
أي تفرقوا في كل وجه ولم يبق منهم أحد؛ أخذ يهينم بدرسه: يعني جعل يقرأ أو راده بصوت منخفض؛ الإرنان كالرنين،
صوت فيه غنة؛ الرقوب: هي المرأة التي يموت أولادها فلا يعيش منهم أحد؛ استنبت: علمت أو تحققت؛ الأفراد: هم السبعة من
العباد الذين لا تخلو منهم الدنيا؛ أسجلت: حكمت؛ المحاثين: الذين حدثوا بتوبة السروجي وأنه أناب إلى مولاه؛ محدثين:
مكاشفين من العباد الذين يتحدثون بالمغيبات.

(66) سورة آل عمران، الآية 159.

(67) سورة الكهف، الآية 78.

(68) المقامات، المقامة الخمسون، ص 582-602.

(69) جزء من الآية 15 من سورة الأنعام. - المقامات، ص 592؛ تناهيت: بلغت النهاية؛ وما انتهيت: ما انترجرت ورجعت؛

نسيا: شيئا منسيا.

(70) سورة مريم، الآية 23.

التلاقي. (71)

وهكذا ختمت المقامات بخير ختام، كما بدئت ببداية طيبة مناسبة، وقد ظل الحريري محافظاً - في مقاماته - على الاقتباس من القرآن الكريم، وكأنه يريد أن يعرف الناس أن القرآن معين لا ينضب، وينفع للاقتباس في كل ضروب الأدب والحياة، وقد صدق.



المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. كتاب مقامات الحريري، القاهرة، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني د.ت.
3. أهل الكنية أبطال المقامات في الأدب العربي. عبد النافع طليمات. دار ابن الوليد، 1957م.
4. رأي في المقامات، د. عبد الرحمن ياغي، بيروت، 1969م، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع.
5. مجمع الأمثال. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد. دار الجيل، بيروت، 1978م.
6. جمهرة الأمثال. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. دار الجيل، بيروت، 1988م.
7. المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود. دار الكتب العلمية، 1978م.
8. المقامة، شوقي ضيف. دار المعارف، 1954م.



(71) المقامة، شوقي ضيف. دار المعارف، 1954م. ص 54-55.